الفصل الثاني

بلاد بابل تحت حكم الكاشيين

إن الاضطراب الذي حلَّ في مواطن الأقوام الهمجية في الألف الثاني ق.م وإزاحة هذه الأقوام بعضها بعضاً وهجرة أقسام منها إلى أنحاء الشرق الأدنى، كان السبب في القضاء على المملكة المصرية الوسطى على أيدي الهكسوس. وبعد أن غزا الحثيون بابل في أواخر الأقوام التي ذكرناها، طردهم الكاشيون الذين حلوا محل الحثيين بعد غزوهم العراق. وقد أسس الكاشيون سلالة جديدة في بابل، عرفت باسم سلالة بابل الثالثة. وكانت نهاية سلالة بابل الأولى في حدود 1600ق.م. ويشير مجرى الحوادث إلى أن الحثيين لم يبقوا زمناً طويلاً في البلاد، بل كانت غايتهم السلب والنهب. ولعل الكاشيين هم الذين طردوهم.

أما الكاشيون فقد جاؤوا من شرق العراق أو شماله الشرقي. ويظهر أن عددهم كان قليلاً. وقد أسسوا سلالة حاكمة دام حكمها زهاء خمسة قرون (من بداية القرن السادس عشر ق.م إلى القرن الحادي عشر ق. م) وعرفت سلالتهم في بابل. أما سلالتها الثانية فكانت مؤلفة من ملوك يرجح أنهم كانوا من الأمراء السومريين، استقلوا في القسم الجنوبي من العراق بالقرب من شواطئ الخليج، ولذلك عرفت سلالتهم باسم سلالة أرض البحر.

اختلف المؤرخون في أصل الكاشيين، والشائع أنهم من القبائل الجبلية في المنطقة الكائنة إلى شرق دجلة وشمال شرقها، وأنهم فرع من الأقوام الهندية الأوروبية. واسم الكاشيين مشتق من اسم إلههم القومي على ما يرجح. ولم يخلف لنا الكاشيون وثائق وسجلات تأريخية مدونة بلغتهم القومية، وإنما استعملوا لغة البلاد الأصلية أي اللغة البابلية السامية، واستعملوا كذلك اللغة السومرية في بعض المآثر الدينية، على نحو ما كان يفعل أهل البلاد، وما ذلك إلا لأن حضارة البلاد التي فتحوها قد طغت عليهم واندمجوا فيها، لأنهم كانوا دون هذه الحضارة في المرتبة، كما طغت الحضارة العربية الإسلامية على هولاكو وأتباعه الفاتحين. ومع ذلك يستدل من بعض المفردات التي جاءت في بعض المعاجم البابلية وكذلك من أسماء الإعلام التي جاءتنا من هذا العهد، على أن لغة الكاشيين تعود إلى عائلة

اللغات الهندية الأوروبية، ولا يستبعد كثيراً أنهم من القبائل الكردية القديمة[1]. اهتم الكاشيون كثيراً بالتراث الثقافي واحتفظوا بالآلهة والطقوس والاحتفالات الدينية البابلية. وقام الكتَّاب والنساخون بنقل أعمال الأجيال السابقة ونسخها، واختاروا منها مجموعات ومصنفات، أضحت منذ ذلك الوقت المرجع المعتمد عند دراسة الأدب البابلي. وتتألف هذه الأعمال من نصوص طقسية وتنبؤات وتعاويذ ومقالات في الطب وجداول معجمية اتخذت صيغاً مقننة ومعتمدة من هيئات الكتاب والكهان المتفرغين للنسخ والتصنيف والتأليف، وكأنهم كانوا يشكلون أولى الأكاديميات والمجامع اللغوية في التاريخ. ولقد أعيد النظر تعديلاً وصياغة في أهم عملين من الأعمال الأدبية الميثولوجية أنتجتهما الحضارة الرافدية وهما: ملحمة الخلق، وملحمة جلجامش. واستطاعت اللغة البابلية تأدية دور أكبر بقيامها بدور الوسيط الثقافي والحضاري، وانتقل كثير من مفرداتها إلى لغات الشعوب الأخرى.

أما في الميدان الاقتصادي، فإن الطابع العام للدولة البابلية في العصر الكاشي هو الطابع الإقطاعي. وهو طابع العصر آنذاك، وكان واضحاً في الدولتين الحثية والميتانية. والمهم هو أن التحول نحو هذا الاتجاه بدأ منذ عصر الأسرة البابلية الأولى؛ فالإقطاعات الشخصية غير القابلة للتوريث أصلاً بدأت تتحول إلى إقطاعات موروثة، ولكن بقي حملة الألقاب المستفيدون من النظام مسؤولين عن تنفيذ الالتزامات والخدمات المفروضة تجاه الملك. وكانت العلاقات الاجتماعية والمالية بين المستفيدين قوية ومغرية لتكوين الثروات الكبيرة. وكان من الممكن الحصول على إعفاءات تزيد من تراكم الثروات. وبالتالي أن يحل المالك محل الدولة في التصرف وجمع الأرباح لحسابه. وهكذا ارتبط المزارع الصغير بسيد كبير، وتكونت إلى جانب الدولة طبقة من الأغنياء الأقوياء المالكين، أخذت تنافس الدولة وتقاسمها على مواردها. والنتيجة هي تصاعد نفوذ أسر كبيرة أرستقراطية، أخذت تستمد قوتها من وضعها الاقتصادي الجديد. وقد بلغ هذا التغيير أقصى درجة من الحدة في الوقت الذي اشتدت فيه وطأة الهجمات والغزوات الخارجية على المنطقة، وحين كانت السلطة المركزية القوية والقادرة ضرورية جداً. وهكذا حين اجتاحت المنطقة حركات الشعوب في شرقي البحر المتوسط وفي كل الشرق الأدنى القديم، لم تكن بابل هي التي تلقت النتائج الأولى للغزو. لقد تلقت البلاد المجاورة أشد الضربات، وانهارت الإمبراطورية الحثية، واجتاحت شعوب البحر الساحل السوري - الفلسطيني ودلتا النيل وبرقة في ليبيا - بينما عمَّ الانتشار الآرامي كل سورية وبلاد الرافدين.

وهكذا يتضح أن بلاد الرافدين، التي كانت مركز الثقل السياسي قروناً طويلة في عصور أكاد وأور الثالثة وحمورابي، لم يكن في مقدورها أن تكون العامل

1- طه باقر: مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة، بغداد، 1958، شركة التجارة والطباعة المحدودة. ص 156-157.

المركزي المؤثر في سياسة المشرق العربي القديم بعد ظهور القوى الدولية الأخرى خلال النصف الثاني من الألف الثاني ق. م. ولقد بقي دورها بلا شك مرعياً، إلا أنه حدث اختلال في التوازن بين دور بابل الدولي السابق ودورها الحضاري الذي بقي متفوقاً حتى العصر الهلنستي[1].

لم يصلنا أي خبر مكتوب عن احتلال كاشي عسكري لبلاد بابل، سوى ما ذكره خليفة حمورابي البابلي سمسو - إلونا في السنة التاسعة لحكمه عما أسماه بطلائع الكاشيين. لقد عاش الكاشيون من قبل في بابل زمناً طويلاً بعد أن تغلغلوا سلمياً في المجتمع البابلي. غير أن وثائق القرن السادس عشر ق.م تذكر الكثير من أسماء الكاشيين عملوا في مواسم الحصاد أو كانوا مستخدمين في الحقول. وهذا ما يدفعنا إلى الاعتقاد أن هذه الهجرة إنما تمت بصورة سلمية. حدث هذا على الأرجح في الوقت الذي كان فيه رؤساء القوم الأشداء ما يزالون يقيمون في موطنهم الجبلي، بلاد الإله كاشو، الذي ظل اسمه بعد ذلك لمدة طويلة مقترناً بمنطقة لورستان، ولم تكن هذه المنطقة الموطن الأول للكاشيين، في الوقت الذي يجوز فيه أن يكون اسم إلههم على علاقة باسم بحر قزوين. وبالإضافة إلى ذلك تبدو أيضاً تلك البقايا القليلة للغتهم التي وصلتنا على شكل فهرس مع ترجمتها الأكادية وكأنها ترينا نوعاً من القرابة مع اللغات القوقازية.

كذلك تدلنا أسماء آلهتهم، التي بقيت حية في أسماء العلم لديهم، على تلك العلاقة مع القوقاز. وحتى هذا لا يتم إلا بصورة غير مباشرة، وذلك عن طريق فهارس المقارنة المكتوبة التي تعدد هذه الآلهة مقابل مال يوازيها من الآلهة السومريين والأكاديين. كما تقودنا بعض أسماء آلهة الكاشيين مثل شورياش، الذي ربطه بعضهم وبحق مع إله الشمس الهندي سرياً، ومثل ماروتاش (ماروت الهندي) أو مثل بورياش (اليوناني) إلى الظن أن الكاشيين كانوا على صلة بالهنود الغربيين. وتأكيداً لذلك نجد أن قسماً من طبقة أمرائهم القياديين كان من الهنود الغربيين.

وللأسف الشديد فإن كل شيء كاشي يبقى لدينا مظلماً بسبب الطغيان الشديد الكاسح للحضارة البابلية، الذي أقعدهم عن تطوير أي نوع من الأدب الخاص بهم سواء كان تاريخياً أو دينياً[2].

اتصف كامل العصر الكاشي في بلاد بابل بميزة بمنتهى الغرابة، ألا وهي عدم التطور، بل التشنج والجمود، لدرجة يشكل معها هذا العصر تناقضاً كبيراً إذا ما قيس مثلاً بالعصر الأكادي. وقد ينتابنا شعور بأن ما من توترات قد صبغت العلاقة بين الغزاة وأهل البلاد الأصليين، وكأن كل شيء في خمول وركود.

1- د. محمد حرب فرزات ود. عيد مرعي: دول وحضارات في الشرق العربي القديم، ص 173-172.

2- أنطون مورتكارت: تاريخ الشرق الأدنى القديم، مرجع سابق، ص 190-191.

ولا يكاد يوجد من بين الحكام الكاشيين من خرج عن هذه المجموعة من الملوك أو شذ عن هذا الخط العام ليبرز بصفات خاصة به. حتى ولا يكاد يوجد بينهم من خلف أثراً يشيد بإنجازات هامة له.

أضفى ملوك الكاشيين الأوائل (جانداش وآجوم وكاشتيلياش الأول) على أنفسهم اللقب الملكي القديم: «ملك جهات العالم الأربع، ملك سومر وأكاد، ملك بابل». حدث هذا في الوقت الذي وجب عليهم الكفاح حتى من أجل الاحتفاظ بعرشهم. ولقد كان هذا الكفاح ليس ضد البابليين الذين بدوا وقد استنفذت كافة قواهم الحربية، وإنما ضد حكام السلالة الحاكمة لبلاد البحر في بلاد ما بين النهرين. ولذا فقد ظل الكاشيون في نزاع مستمر مع هؤلاء، إلى أن استطاع الملك الكاشي الثاني عشر أولام بورياش التغلب على آخر ملوك بلاد البحر أيا جميل وطرده إلا بلاد عيلام. وعند ذلك بالذات استتب الأمر للكاشيين، فأصبحوا وكأنهم السكان الأصليون في بلاد بابل وأصحابها الشرعيون[1].

وهكذا نرى ملكاً يدعى كارايندداش عاش في منتصف القرن الخامس عشر ق.م يترك نطاق الظلمة فيدخل منطقة الضوء ليصبح أكثر وضوحاً،حسب ما أظهرته لنا التنقيبات الأثرية في العاصمة السومرية أوروك (الوركاء) التي كشفت عن معبد صغير كان قد بناه هذا الملك هبة منه إلى الربة إنانا. ورغم أن هذا المعبد ليس بذلك المبنى الكبير الجبار، إذا ما قيس بأبعاد تلك الأبنية الكبيرة السومرية والأكادية في أوروك، إلا أنه يرينا بأسسه وارتفاع جدرانه صفات خاصة تميزه عن فن البناء الأقدم عهداً في بلاد بابل.

يتألف المخطط العام للبناء من غرفة طولانية الشكل مع ضالة أمامية. ويحيط بالأولى قاعات جانبية صغيرة. وإضافة إلى ذلك يتميز المعبد بارتفاع واجهته الأمامية المبنية من آجر يؤلف صفوفاً متناوبة بأشكال بارزة تمثل آلهة الجبال والمياه، التي تستقبل الناظر إليها وجهاً لوجه. ولتبلغ مكانة هذا المعبد مهما بلغت من البساطة، فإنه يبقى كبرهان حي جلي للحضارة الكاشية الخاصة وعلاقتها مع حضارة الشعوب الجبلية[2].

وإذا ما تفحصنا عن كثب مستوى الحكام الكاشيين على الصعيد السياسي، بالشكل الذي نقلته إلينا مراسلات «تل العمارنة»، نجده ليس بأحسن حظاً من مستواهم الحضاري. فرغم وجود عدد من رسائل وجهت من الملوك الكاشيين للحكام المصريين التي تبين لنا تساوي الملكين منزلة، مخاطباً كل منهما الآخر بتعبير «أخ»، تبقى الحقيقة المحزنة واضحة، وهي أن الملوك الكاشيين كانوا يرسلون بناتهم إلى دار حرم فرعون مصر.

1- المرجع السابق، ص 191.
2- نفس المرجع، ص 192.

كان يحدث ذلك ولو كانت تمضي سنون عديدة على وجودهن في مصر دون أن يتلقى آباؤهن منهن أي خبر عن مصيرهن. أما الواقع فكان الشاغل الرئيس للملوك البابليين، وهو كيف تصل يدهم إلى الذهب المصري، كي يستطيعوا تثبيت أقدامهم في الحكم، وبالتالي تبوئهم مرتبة الملوك الكبار إذا ما حظوا بشرف الزواج من أميرة مصرية. ولما كان الحاكم المصري لم يقتنع بفكرة زواج إحدى بناته من ملك كاشي، نرى هذا الأخير يضطر لاجئاً لمحاولة إقناع فرعون مصر بأن يرسل على الأقل مصرية جميلة إلى بابل، ليصار إلى جعلها أميرة شرعية يفتخر بها البيت الكاشي وكأنها أميرة من البيت المصري المالك. وهنا يلمس المرء الفارق الشاسع بين عظمة حضارة عريقة في القدم يمثلها الملك المصري، وبين بيت مالك لا يزال يعيش على ضوء وتحت ضغط الحضارة البابلية القديمة يسعى جاهداً للاعتراف به بشكل تام.

وقد برهنت آخر الحفريات التي أجريت في خرائب عقرقوف، التي تبعد بعض كيلو مترات إلى الشمال من بغداد، في المكان الذي كانت ترى دوماً زقورة عالية الارتفاع، أن الملوك الكاشيين اتخذوا سنة لهم كالملوك الآشوريين بتأسيس مقر جديد لملكهم، يجب أن يكون المؤسس الأول لهذه المدينة الملك كوريجا لزو أحد ملوك القرن الخامس عشر وسلف الملك كار ينداش. أما المحدد والمتمم لبناء المدينة فقد كان ملك آخر يحمل اسم الباني الأول وأحد خلفائه وهو كوريجا لزو الثالث. ورغم ذلك فقد بقيت المدينة تحتفظ بلقب ابنها الأول فسميت «دور كوريجالز». وهنا نرى أن الطابع المعماري البابلي القديم في فن العمارة يتجلى في الكثير من معالم هذه المدينة. بيد أن هناك بعض الميزات الفنية الخاصة بالكاشيين كالرسوم الملونة على الجدران مثلاً، التي تذكرنا بفن الشعوب الجبلية الأخرى المعاصرة والغازية أيضاً لأرض الشرق الأدنى[1].

ولقد قدر لما يسمى بالـ «كودورو»، أي علامات من الحجر لتحديد الأراضي الزراعية، أن تنير لنا بعض الشيء جانباً آخر من الحضارة الكاشية وذلك في المجالين الاقتصادي وتاريخ الفن. إنها أنصاب تعد من أقدم ما عرف أولاً عن هذه الحقبة التاريخية. عثر على العديد منها في مدينة سورا، عاصمة عيلام (في جنوب إيران)، حيث نقلت من بلاد بابل كغنائم لتلك الحرب التي شنها أحد ملوك عيلام على بلاد ما بين النهرين فيما بعد. تتميز هذه القطع بشكلها الطولاني المخروطي الذي يتسم أغلب الأحيان بعدم الإتقان في نحت جوانبه، ولقد وضعت هذه الحجارة في الأصل خصيصاً لتكون علامات مقدسة تفصل بين تلك الحقول الزراعية، التي قام الملك بإقطاعها لموظفين كبار أو كهنة أو وقفها للمعابد. وكثيراً ما وضعت هذه الحجارة إلى جانب الحقول الزراعية التي تحددها.

1- المرجع السابق، ص 193.

تحمل هذه الحجارة بلا استثناء نص إقطاع الأرض وبجانبه نقش يمثل صفاً طويلاً من رموز الآلهة أو شعارات لها كشهود على صحة نص الوثيقة. إن ميل الكاشيين إلى طريقة إبراز آلهتهم بالرموز المجردة بدلاً من الشكل البشري، دفع بهذا القسم الضئيل المتبقي لدينا من الرسم في هذا العصر لأن يفقد أيضاً جانباً من وضوح محتواه.

أما فيما يتعلق بالأختام الأسطوانية الكاشية، فإنها لا تستطيع أن تكون بديلاً عن الفن التشكيلي من الأحجام الكبيرة التي يفتقر إليها هذا العصر، وذلك لأنها لا تخصص سطحاً كافياً للصورة المرسومة عليها بالقدر نفسه الذي تتركه على الأسطورة الكتابية المرفقة إلى جانب الصورة.

وعلى العكس من العصور السابقة، أصبحت الأسطورة تتصف الآن بالطول لتعرضها إلى ذكر صلوات تفصيلية. ورغم أن الآلهة في عصور أخرى من تاريخ الشرق الأدنى، سواء كانت سابقة لعصرنا هذا كفجر التاريخ أو لاحقة به كالعصر الآشوري الحديث، قد جسمت بإشارات ورسوم مجردة، نجد أن الابتعاد الواضح عن تخيل الآلهة ورسمها على صورة إنسان في فن الرسم والنحت للعصر الكاشي لأكثر من أن يكون بادرة ظهرت بطريقة الصدفة. إذ من الممكن أن يكون لهذه الظاهرة ارتباط بتلك العلاقات القديمة للطبقة الحاكمة الكاشية بالديانة الهندية الغربية، وفي ذلك الظرف العام الذي أخذ في تحول ديني شامل مهد له ليشق طريقة الجديد في العصر الكاشي، والذي لا يمكن تفسيره سوى بتركيز هذا العصر على أهمية السلوك المثالي[1].

إن مجمع اللاهوت السومري - الأكادي وتلك الأساطير الدينية، التي حيكت حول بعض الآلهة على مر مئات السنين، لم تكن كلها سوى تشخيص لقوى الطبيعة ووصفاً لجوهر علاقات هذه القوى الخارقة، الطيبة منها والشريرة، في شكل صداقة وعداوة بشريتين: على شكل حب وكراهية أو مساعدة، وصراع خبث وقوة. كذلك لم تكن أساطير الآلهة السومرية والأكادية في الأصل، شأنها شأن الأساطير الهومرية، ذات ارتباط بالمبادئ الخلقية، كما لم يكن الصراع بين الجيل الجديد لآلهة الفضاء ضد الجيل القديم لآلهة دار الفناء في الحقيقة صراعاً ذا طابع أخلاقي، وإنما كان يدور حول مشكلة قيادة السلطة وأحقية كل منها في تنظيم الكون.

كان العلماء من الكهنة هم الذين أخذوا ينقحون الملاحم الدينية في النصف الثاني من الألف الثانية ق.م أي في العصر الكاشي، والنتيجة أنه قد حذفت من الملاحم الدينية تلك الأساطير، التي تؤكد بصورة خاصة على الصفات البشرية للآلهة.

1- نفس المرجع، ص 194-195.

ولم يعد ذا أهمية هنا الأفكار التي تدور حول صراع الآلهة بعضهم ضد البعض في تلك المواقف التي تلعب فيها الآلهة دور حامية الخير ضد الشر.

لم يخلِّف علماء اللاهوت لنا سوى تلك الأساطير الدينية التي ترتكز على معنى خلقي مثالي. ولم تشذ عن تلك القاعدة سوى ملحمة جلجامش، التي لم تحافظ على مستواها من الأهمية - رغم تجردها عن أي هدف مثالي - إلا تبعاً لعمق نظرتها العامة بتحليلها للمشاكل الإنسانية.

وكما هي الحال غالباً عند حكم الأجنبي، كان أيضاً عصر الحكم الكاشي الأجنبي بالنسبة إلى الشعب البابلي عصر اليقظة وعصر العراك مع مصيرهم المحزن - لقد وجب وجود تعليل أعمق وأبعد مدى لتلك الصدمة العنيفة التي ظهرت معالمها في تقييد الحرية السياسية وفي الانهيار الاقتصادي. ولم يستطع المرء إيجاد سبب ذلك وإدراك حقيقته، سوى في ابتعاد الآلهة عن أتباعها وغضبها عليهم. وفي المقابل لا بد إلا وأن يكون هناك من سبب لهذا التخلي من جانب الآلهة عن الشعب، والذي كان هو الإثم الذي اقترفه الشعب البابلي بحق آلهته. ولما كان مفهوم الآلهة قد تطور، حيث ارتفع ليتطرق إلى المبادئ الاجتماعية الخلقية العامة، لم يعد باستطاعة المرء التكفير عن الخطيئة المقترفة فقط باتباعه تطبيق سبل كيفية العبادات والطقوس الدينية المادية من إقامة الأفراح الدينية وغيرها من الأضاحي. إذ أخذت الآلهة، التي تجسد مبادئ السلوك المثالي الكامل للخليقة، منذ الآن ترسم وتحدد للفرد وللشعب بأجمعه أسساً لعلاقاته وطرقاً وأنظمة لسلوكه الاجتماعي العملي. ونتيجة لذلك لم يعد في الإمكان البحث عن علة هذا الانحطاط الشعبي سوى في ذنب واحد عام، وهو اقتراف الخطيئة المسلكية.

إن الآلهة لتطلب من البشر مقابل حمايتها التي تنعم بها عليهم، روابط مسلكية خلقية تحدد علاقاتهم مع بعضهم البعض. وإذا ما قدر للآلهة التخلي عن هؤلاء، فإن ذلك لبرهان أكيد على اقترافهم للخطيئة[1].

ولما كان شعور الإنسان البابلي بالذنب والخطيئة قد تيقظ لهذه الدرجة، فقد فتح بذلك الطريق للغلو والتطرف فيه، لدرجة بلغ فيها الإحساس المتواصل بالنقص والتعقيد النفسي البشري العام أمام الآلهة. ولقد قدر لهذا الشعور أن يبلغ بعد ذلك درجة من الأهمية عند سكان بلاد ما بين النهرين، لا تقل عما أصبحت عليه اليهودية والمسيحية. ونتيجة لذلك تولدت النظرة بأن كل عذاب ليس إلا عقوبة على خطيئة سواء اقترفت عمداً أم سهواً. وقد وردت بعض هذه المعاصي، في فهرس يعددها إثماً إثماً، التي على الإنسان أن يقطع على نفسه عهداً مع الإله بعدم ارتكابها ويقضي بلوم مرتكبها في المجتمع، تبعاً لوصية الإله. وعلى سبيل المثال، فإن قطع مثل هذا العهد لا يقتصر على تحريم الفتنة بين أعضاء الأسرة الواحدة، بل كذلك بتحريم عدم الإخلاص للأصدقاء ونكران الجميل وكذلك بمنع الكذب والافتراء

1- نفس المرجع، ص 196.

بشتى أنواعها والحرص على قول الحقيقة غير منقوصة، وحتى تحريم استخدام القوة ضد أسرى الحرب، أي معاملة الأعداء معاملة حسنة.

إن هذا التركيب المسلكي للعلاقات الإلهية - البشرية يتطلب في المقابل وجود مبدأ حتمي آخر معين معاكس هو: إذا ما كانت المصيبة بمثابة عقوبة لمعصية ارتكبها الإنسان، فيجب أن تكافأ البراءة والطهارة بإنقاذ البريء من المصيبة.

وفي الواقع لقد نشأ نوع من أدب الحكمة يشابه إلى حد ما الحكم والأمثال المصرية القديمة واليهودية، يبحث عن مسلك ينير للإنسان كيف عليه أن يعيش دون أن يصطدم مع وصايا الإله الاجتماعية كي يبقى بخير وسلام. وستجد كل هذه الأشياء منبعها الفكري في نفسية الشعب البابلي المعذبة تحت براثن الحكم الكاشي. بيد أنه لا يوجد في أدب الحكمة ما يستطيع أن يغير من الحقيقة - شأن الحال عند اليهود - أن الصالح يصاب بالكوارث في بلاد بابل، بينما ينعم الظالم بالسعادة وبخيرات هذه الدنيا. لقد شكل التناقض الرئيس بين العدالة والمجهود الإلهي من جهة ونكبة الإنسان البريء والصالح من جهة أخرى، المشكلة نفسها التي تتعرض لها قصة أيوب بعد ذلك، شكل مادة حية رئيسة لمزمور كبير، حتى في بلاد بابل لنهاية الألف الثانية ق.م. ولا يوجد هناك من مخرج لهذه الحيرة، سوى في الإيمان بعجز التفكير البشري أمام الإرادة النهائية المسلكية للإله الأكبر. أما الشيء الذي لا يمكن فهمه فهو سبب تلك الآلام الكثيرة التي يعانيها في الوقت الذي بدت فيه قوته وكأنها قربت من الزوال. ولذا فقد بدأ أحد أناشيد التظلم بالكلمات الآتية:

أريد تقديس سيد الحكمة
نظرت خلفي فإذا بالصعاب
تطاردني
وكأن ما من قربان قد قدم لإلهي
مني
أولم يسمَّ باسم إلهي عند الطعام،

وكأني لم أخر على وجهي راكعاً
وكأن سجودي لم يكن للعيان واضحاً

أو كامرئٍ خرس لسانه
وسد فوه عن الترجي والصلاة

وأبطل الأعياد
وأهمل التضحيات

ذلك الذي لم يناج ربه
ملتهماً حتى طعامه

تاركاً ربته
دون أن يقدم رقيماً طينياً لها

مقسماً بإلهه المقدس
بكل خفة وبساطة

هكذا ظهرت أنا
ولكنـــي لـــم أفكـــر إلا بالتوســـل
والصلاة

لقد كانت الصلاة إحساسي
والقربـــان واجبـــي الأول فـــي الحياة
كان يوم تقديس الإله
رغبتي القلبية
وعرس الربة لي
ربح وغنى (وحمية)
كانت الصلاة من أجل الملك
لي فرحة
والعزف على الأوتار
لي رغبة
فالذي يعيش ليلاً
قـد يصـبح فـي النهـار ميتـاً صريعاً
لقد أظلم فجأة
فيسحق سريعاً
في لحظة ما تراه
يغني ويلعب
لتجده بعدها في الـ «نو»
يولول كالأم الثكلى
وكما يتبدل الضياء والظلمة
تتغير الإرادة

إن خاتمة هذه الحكمة ليست في الواقع إلا استسلام الإنسان للإله الأعظم وإرادته، التي لا يحيط بها علم، ومن ثم عجزه عن التمييز بين الخير والشر.

ولهذا يجوز لنا الاعتقاد أن تطور التفكير الديني الخلقي للشعب البابلي، قد بلغ هذه النقطة في نهاية الحكم الكاشي وأي طريق ومسافة قطعها هذا التفكير منذ أن اعتقد الإنسان في العصر السومري، أن المرض والمصيبة ليسا سوى نتيجة هجوم الجن الشرير على إنسان معين دون أن يكون في ذلك أي صدى للموقف الخلقي[1].

وصلنا شعر آخر على شكل حوار بين صديقين، أعاد العلماء تاريخه إلى العصر البابلي المتأخر، وذلك انطلاقاً من أسلوبه البليغ. إلا أنه من الممكن أيضاً أن يرقى زمن هذا الشعر إلى أقدم من ذلك؛ بحيث قد يعود إلى العصر الكاشي. إن هذا السفر الواسع والمفصل، كقصة أيوب، يؤكد كنشيد مديح حكمة مردوخ على العجز الجذري للمقاييس البشرية الخلقية، وكذلك على عدم استطاعة البشر معرفة الإلهي للعدالة.

1- نفس المرجع، ص 197-199.

رغم أن درجة السلوك الديني التي وصلها المرء في هذين الشعرين قد تجاوزت حقاً تلك القمة التي تنسجم عملياً والاعتقاد الديني للشعب، إذ لم تعد تلك الدرجة من هذا السلوك تتفق ومصالح الشعب في نظرية العجز البشري التام لمعرفة خبايا القدر، إلا أنها تبقى تشكل نقطة انطلاق لتقييم السلوك والورع الدينيين في الشرق الأدنى القديم. كما أنها ترينا أيضاً بشكل عام أن التطور الفكري يجب ألا يرتبط أبداً بالانهيار السياسي والاقتصادي.

غير أن الذي لا يمكن إدراكه حالياً هو ما إذا كان الكاشيون، الذين لم يشكلوا في الواقع سوى طبقة حاكمة بسيطة، قد أثروا فعلاً في الربط بين الدين والسلوك الاجتماعي. إننا نعلم بكل تأكيد أن الكاشيين قد احتفظوا بآلهتهم الخاصة التي أتوا بها من موطنهم الأصلي كونهم استشهدوا بها أول الآلهة عند إبرامهم للعقود. ورغم ذلك فإننا لا نستطيع الظن بأي شيء حول الماهية الخاصة لهذه الآلهة أو حتى شكل كيفية عبادتها أو دورها الخلقي.

ومن الممكن أن يكون قد انبثق عن الاعتقاد الديني الشعبي نوع آخر من الاتجاه الديني، الذي وإن لم يكن قد أدى إلى تغيير جوهري في الاعتقاد البابلي الديني، غير أنه قاد إلى توسع في أحد فروعه: كالاعتقاد بعالم الجن والشياطين والسحر والشعوذة وكيفية طرد الشياطين بالتعاويذ وأخيراً قراءة وتنبؤ المستقبل.

وقد اتجه الكهنوت الرسمي الآن بالذات إلى هذا الفرع حتى لا يفقد علاقاته وأواصر ارتباطاته مع الشعب. نعم لقد وجدت الأرواح الشريرة والخيرة بكل تأكيد منذ آلاف السنين في بلاد بابل وبلاد أخرى من العالم أيضاً. إلا أنه لم يكن قد مر قبلاً على الشعب البابلي مثل هذا القدر من الشعور، بأنه محاط بالشياطين في كل وقت من النهار والليل كالشعور الذي نشأ أثر التغيرات الجذرية الفظيعة في العصر الحثي.

ونتيجة لذلك فقد وجد الكهنة أنفسهم مضطرين أيضاً للقيام بتنظيم عالم الظلمة للأرواح الشريرة بشكل يستطيعون فيه مكافحتها، وذلك في الوقت نفسه الذي وضعوا فيه تنظيماً معيناً لعالم النور الخاص بالآلهة المحلية القديمة.

وقد ربط المرء عناصر الشر اللامتناهية العدد التي لم يتمكن المرء من الإحاطة بها، بلا استثناء، بقوة عليا هي قوة آلهة السبع الشريرة مجتمعة، التي إليها يعود سبب بلية الخليقة. وقد حاول البعض أحياناً تفسير هذه السبع الشريرة بالآلهة السبع الرئيسة لبلاد عيلام.

ثم قام الإنسان بجمع نصوص السحر ونصوص ردع أذى الشياطين في سلاسل من النصوص، سميت بسلاسل مقلو وشوربو الشهيرة، التي تجمعت فيها الحلول العملية لدفع الأذى المفاجئ بألف شكل من أشكاله.

وقد توسع ذلك حتى شمل دخيلة النفس البشرية إذا ما حلَّ بها الشر، بعد اضطرار إلهها الخاص للتخلي عنها غاضباً عليها لاقترافها عمداً أو سهواً إثماً مسلكياً ما. ولقد انتقلت الصبغة الخلقية للورع الديني البابلي في جوهرها من العجز عن التنبؤ بإرادة الآلهة ومن عجز الإنسان أيضاً عن الحكم على المقاييس الخلقية إلى التطرف والغلو. فتشابكت وتناقضت بذلك تحاليلها للخطيئة وللعدالة الإلهية.

ولهذا لم تستطع هذه الديانة الكهنوتية الرسمية من خلال ذلك إيجاد مخرج تعرف به الإرادة الإلهية أن تؤثر عليها بواسطة الصلاة مثلاً وتقديم القرابين والاحتفالات الدينية والتنبؤ بواسطة القرابين، وكتمان الأسرار الدينية والسحر ودفع أذى الشر، ولكننا نجد، رغم ذلك، أن ديانة الكهنة قد بقيت في الحياة اليومية متفوقة على الخلق الاجتماعي المنحسر. ذلك أن أحوج ما يحتاجه الشعب البسيط هو نقطة انطلاق واضحة ومفهومة لطريق حياته لا أن يبقى يتخبط محتاراً أي طريق عليه أن يسلكه. وهنا تتجسم العلة بالذات: كيف قدر للشعوذة في بلاد بابل خلال القرون الزمنية اللاحقة أن تشهد توسعاً في محتواها ومداها بشكل لم يعهد له مثيل في أية حقبة من عصور التاريخ[1].

1- المرجع السابق، ص 198-201.